

مقدمة في اللسانيات المعرفية

د. حمو الحاج ذهبية

جامعة تيزي وزو

اللغة هي الوسيلة التي اعتمدها الإنسان منذ الأزل للتعبير عن حاجياته ومكوناته الخفية، وهي محل استلهم حاول من خلالها فهم العالم، وفهم الذات، والعلاقات التي تربطه بكلّ العوالم الممكنة، وإن كانت اللغة متعدّدة الأشكال، فالإنسان وظّفها لأغراضه معبّراً عن قدراته التواصلية والاستنتاجية والاستدلالية، إذ ما فتئ متمكناً من الولوج إلى الجانب الخفي واختراقه نظراً لما أوتي به من كفاءة إدراكية ومنطقية واجتماعية....

وقد كان الإنسان منذ القديم يطرح الأسئلة حول ظواهر لها علاقة بحياته اليومية وبتطوّره، ومثل هذه الظواهر التي تشغله كانت أساس نتاجاته الذهنية، مثلاً حاول حصر هذه الظواهر باستعمال التعيين باعتباره الوسيلة الفاعلة لضبط مفهوم ما. لقد انطلقت عند أمم متعدّدة وعبر العصور نقاشات ذي أهمية حول العلاقة الكائنة بين اللغة باعتبارها وسيلة للتعين، والذهن باعتباره حاملاً للأفكار، ومن المؤكد أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد الحامل لملكة وحيدة معقّدة وفي تطوّر مستمر سواء من الناحية الذهنية أو الفزيولوجية، وبمثل هذه الملكة التي وهب الله بها يختلف عن المخلوقات الأخرى. والنقاش لا يزال متواصلاً حول ما ذكر وحول ما اقترح من آليات وتفسيرات أكثر انسجاماً وأكثر عملية لتفسير الظاهرة التي دعاها النّفسانيون واللسانيون بالمعرفة أو الإدراك، ولتطوير هذا النموذج كانت الاستعانة بالإعلام الآلي والعلوم العصبية والذكاء الصناعي... ذا أهمية بارزة. ومهما كانت النتائج المتوصل إليها من خلال تجربة تورينغ* A.M. TURING ، ومهما كانت النقائص التي لوحظت فيها، فإنّها تعدّ القاعدة الأساس لتطوّر العلوم المعرفية حالياً والممتّدة إلى مختلف تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم التجريبية. وللخوض في هذا الموضوع من الأهمية بمكان البحث ومعالجة هذه الأفكار التي تتمثّل في:

- ما هي علاقة الفكر باللغة؟

- هل من وجود للسانيات معرفية؟

- ما هي طبيعة المعارف التي تشكّل اللغة من حيث مكوناتها المختلفة: الصوتية-الصرفية-التركيبية-الدالية-التداولية.

ومن الأهمية معرفة أنّ اللغة إذا كانت تسهم في المعرفة/الإدراك، فذلك لا يضمن في الحقيقة ما يجعل من اللسانيات علماً معرفياً أو أنّها تنحدر من العلوم المعرفية، لأنّ الغموض يبقى محيطاً بالعلاقة الرابطة بين العلوم المعرفية جميعها وبعد اقتراح التمثّل التركيبي الذي يضبط هذه العلاقات، يمكن محاولة تبريرها بدراسة تاريخ البحث المعرفي، وهو البحث الذي يبقى غامضاً نظراً للتنافس الوارد بين الوحدات المعرفية والاقترانية. وإذا كان كلّ تخصص من هذه التّخصصات المشاركة في البحث المعرفي تبحث في التشاكل الموجود بين اللسانيات وحاجياتها. فهل اللسانيات علم معرفي؟

ومن الغريب أننا لا نحتفظ من بين العلوم المعرفية إلا باللسانيات. في الحقيقة، تتخذ جميع التخصصات اللّغة هدفاً لها، ومن هذه التخصصات نجد: علم النفس المعرفي، علم النفس الأعصاب، علم الاجتماع، فلسفة اللّغة، إلّا أنّه من الملاحظ أنّ اللسانيات هي التخصص الذي يتخذ اللّغة هدفاً خاصاً مضبوطاً من خلال تعدّد اللّغات، وبالتالي تعدّد اللسانيات علم اللّغة الوحيد*، ومن هذا المنطلق يمكن أن نجد نقاطاً للاتصال بالتخصصات الأخرى المعالجة للّغة، وبالأخص تلك التخصصات المشاركة في البحث المعرفي.

ويمكن أن نعتبر أنّ الهدف الحقيقي للسانيات مشكّل بوساطة اللّغات، واللسانيات هي التي تعالج اختلافها (اختلاف الوضعية الوصفية، اختلاف الوضعية التاريخية)، ومن هذا المنظور تكون اللّغة تجريداً دون أيّة قيمة تفسيرية في حالة التصنيف، أو بكلّ بساطة تسمية ملائمة لتعيين مجموع الكفاءات (كمفهوم الفونيم، مفهوم الاسناد،...)، وبهذا التّصور يبدو أنّ اللسانيات لا علاقة لها بالتخصصات الأخرى المعالجة للّغة من جوانب أخرى. إنّ تعدّد اللغات يبدو ظاهرة غير أساسية، والنظريات اللسانية التي يحال إليها عادةً في هذا الاتّجاه هي التّحو العام ونحو تشومسكي N.Chomsk، وشومان Chaumjan، أو نحو مونتاق (Montague)، ومن ثمّة فإنّ اللسانيات العالمية أو الشمولية Universelle تختلف عن اللسانيات العامة، وبعيدة عن التّكامل، تتقابل حيناً وتتعارض حيناً آخر. وبالتالي من الأهمية بمكان أن نطرح هذا السؤال: هل هناك علم معرفي؟

يحيل التّعرض لما يدعى بالعلم المعرفي إلى الاستعمال أو التوظيف الأمريكي لهذا المصطلح من خلال مجلة Cognitive science أو ما وظّفه جاردنر¹ Gardner في The Mind's New Science 1985 أو هذا التعريف الذي نجده عند لومواني Le Moigne عن العلم المعرفي يقول فيه: "هو تخصص محدّد (منذ 1977) بصفة مستقلة عن طريق هدفه-دراسة العمليات المعرفية بشكل عام، الطبيعية والاصطناعية-وعن طريق نمط تشكّله: التفاعل المنظّم والمنظّم لعدد من التخصصات التي لها علاقة بالعمليات المعرفية: علوم الاحتمال والإعلام، المنطق، اللسانيات، اللسانيات النفسية، علم النفس المعرفي، علم النفس الأعصاب، علم النفس الاجتماعي، الأنثروبولوجية الاجتماعية، الابستمولوجية. فالإدراك/المعرفة وفعل التّعرف/الإدراك يتحدّد انطلاقاً من مجموع العمليات المعرفية الطبيعية والاصطناعية"² وهذا بالعودة سواء إلى الدّهن البشري أو إلى العمليات الحسابية الآلية.

- اللّغة والفكر:

بما أنّ اللّغة تميّز الفكر البشري، فماذا تقدّم لنا عن هذا الفكر؟، وبطريقة معكوسة: كيف يتواجد العمل الدّهني في اللّغة؟ هذه هي إشكالية اللسانيات المعرفية، يقول بوفيريس Bouveresse: "يتعلّق الأمر بتفسير الأعمال اللسانية انطلاقاً من الحالات الافتراضية لنموذج ذهني حيث يُفترض تواجدها سببياً"³، إذا كانت اللسانيات "بالمعنى الذي وضعه سوسور" تتركز على العلاقات بين الشّكل والمعنى، فإنّ على هذه اللسانيات إضافة تفكير حول الدلالات اللسانية في علاقتها بالمفاهيم، وبذلك يُطرح السؤال حول العلاقات الكائنة بين اللّغة والفكر، يقول لازارد Lazard: "إنّ الفكر الإدراكي مرتبط دائماً باللّغة"، وهي المسألة التي عالجتها الفلسفة منذ زمن بعيد وهي محلّ تطوّرات جديدة في إطار العلوم المعرفية. لقد

حدثت موافقة نسبية بين عدد من الباحثين من تخصصات مختلفة تقول إنّ اللغة ليست بضرورية للفكر: الفكر دون لغة شيء ممكن، ولكن يبدو أنّ اللغة تتكوّن من شكل فكري خاص بالإنسان، فاللغة هي التي تشغل نوعا خاصا من العمليات.

وماذا تقول اللسانيات المعرفية عن طبيعة هذه العلاقات؟ بالنسبة للنحو العام، فإنّ مميّزات الوحدات اللسانية سوف تفسّر بالخصائص المنطقية لعوامل هذا الفكر التي يمثلها رمزيا، وهذا يعود إلى اعتبار اللغة جهازا حسابيا بسيطا للربط التركيبي بين "الصيغة المنطقية" و"الصيغة الصوتية"، حيث تضمن كلّ من الصيغتين الحدّ المشترك مع إحدى الوحدات الخارجية أي الوحدة الإدراكية المعرفية، أو الوحدة الصوتية. وباعتبارها انعكاسا للمفهوم العالمي المدرك على أنّه يدخل في إطار الدّهن البشري، فإنّ الدلالات اللسانية لا تلعب أيّ دور معرفي مميّز.

أما بالنسبة لأصحاب النّحو المعرفي، فإنّ اللغة تفتح شرخا على المعرفة (وهذا بمفهوم راستييه⁴ Rastier، والمكرّر من قبل جاكندوف (Jackendoff)، وذلك في حدود ما شكّلت البنى الدلالية للغات بذاتها تمفصلات نشيطة. وبالتحديد، فإنّ اللغة تصنف بعض الواجهات في تشكيل المتصورات المجردة الموظّفة من طرف الفكر اللساني السابق، وتنظّم بطريقة متغيرة. إذا تكمن خصوصية اللساني في "عمليات" التصنيف وتشكيل المحتوى المفهومي، فمثلما يقول لونفاكر Langacker نقلا عن ديسلي⁵ Deslés: "إنّ أخذ الدلالة على أنّها ظاهرة معرفية ينبغي أن تحلّل على أنّها كذلك".

وفي محاولة ربط اللساني بالذهني، اقترحت طريقتان مختلفتان في اللسانيات المعرفية، يصفها راستييه Rastier بالطرائق التمثيلية (طريقة تشومسكي في إطار النموذج المعرفي)، والطرائق الإجرائية (طريقة علم الدلالة الإجرائي للذكاء الصناعي، ثم طريقة الأنحاء المعرفية). نلاحظ أنّ مفهوم التمثيل بعيد عن صفة الاشتراك. صحيح قد انتقد مفهوم التمثيل من قبل معارضي النموذج المعرفي الذين يرفضون فكرة النسخ الثابت للبنى المنطقية الإدراكية المبنية مسبقا والمضافة إلى "المعلومات" الآتية من الخارج، ولكن يمكن أن تفهم في المنظور البنائي حيث تُدرك اللغة باعتبارها نشاطا بنائيا للتمثيلات الدلالية، وبالتالي لن يتعارض التمثيل مع الإجراء.

وهنا يمكن القول إنّ اللسانيات التي تدعى بالمعرفية، والتي تتحدّد بمقاربة اللغات الطبيعية باعتبارها ظواهر عقلية ليست بمتواطئة مع التغيّرات الكبرى⁶ المختلفة أساسا في علاقتها مع المعرفة.

التغيّر الأول: الذي يمثّله الباحثون مثل لاكوف وجونسون⁷ Lakoff & Johnson 1987، ولونفاكر⁸ Langacker 1990، وتالمي⁹ Talmy 2000، ينتمي إلى التقليد الوظيفي الذي يهتم خصيصا بالتنظيم المفهومي للمعرفة اللسانية، وموضوعاتها تتلخّص في: الاستعارات المفهومية، والانفعالات، والكتابة، واللغة باعتبارها رمزا للثقافة، والفكر.... ويبدو في خضمّ هذا التغيّر وجود ميدانين من البحث: ميدان الصوت (المتعلق بالفواصل المفهومي بين التركيب وعلم الدلالة)، وميدان التداولية المرتبط باستعمال اللغة.

التغيّر الثاني: يشمل النزعة اللغوية التوليدية ويمثّلها تشومسكي Chomsky* 1965، 1975، 1995، وبولوك Pollok 1997، ويهتم خصيصا بالتنظيم الصيغي للغة، وبتبسيط

أكثر يمكن القول أنّ معرفة اللغة مرتبطة بمعرفة النّحو أيّ بالجهاز العام الذي يسمح بإنتاج عدد غير متناه من الملفوظات انطلاقاً من عدد محصور من العناصر.

ومن بين النّقاط الأساسية للاختلاف بين التّوجّهين اللسانيين نجد مشكلة الوحدات، فيمكن وضع اللسانيات الثانية في نطاق النوع الوحداتي، في حين اللسانيات المعرفية الأولى ليست كذلك. وبالنسبة للساني وعلماء النفس الذين يؤيدون المفهوم الوحداتي والذين يتصوّرون الدّماغ على منوال الحاسوب (باعتباره وحدة للمعالجة التسلسلية للرّموز) يدركون اللّغة وحدة مشكّلة بذاتها من وحدات فرعية، ويقال عنها أنّها مضغوطة من المنظور الإعلامي بإزاء جهاز ترجمة معلومات مركزية، وهذا يعني أنّها تشغل كعلب سوداء مفتوحة للمعلومة الدّاخلية، ومنغلق على المعلومات التي يمكن أن تأتيها من أجزاء النّظام الأخرى.

وهذا يرجعنا مرّة أخرى إلى موقف اللسانيات من العمليات الدّهنية بتحديد دور اللغة في الاشتغال الدّهني. بالنسبة للعلوم المعرفية التي تدرس اشتغال الدّهن والدّماغ، تشكّل اللغة وسيلة البحث من الدرجة الأولى: علماً أنّ الجنس البشري هو المالك الوحيد لمثل هذه "الكفاءة العالية" المعقّدة. نجد الكثير من التّخصّصات المرتبطة بدراسة المعرفة المهمّة باللغة مثل علم النفس، الفلسفة، علوم الأعصاب، الأنترولوجية... وكلّ مختصّ في هذه العلوم يحاول إبراز مكانة الكفاءة اللغوية في المعرفة الطبيعية والصناعية ودراسة اشتغالها.

بينما تعدّ المقاربة اللسانية للغة أساسية أو أكثر خصوصية من تلك التّخصّصات المذكورة سلفاً. إنّها أكثر مركزية لأنّها تقتحم هذه الوسيلة انطلاقاً من دراسة بنية اللغات، وحسب تحديد كلاسيكي فإنّ "اللسانيات هي علم اللغة المدرك من خلال تعدد اللغات الطبيعية".

إنّ هدف مختصي اللغات فيما يتعلّق بالمسائل المعرفية ليس بحديث العهد، ولا يمكن تجاهل النظريات اللسانية الكبرى الموجودة منذ أكثر من قرن، وأعمال النّحويين، والبلاغيين والمناطق منذ القديم، وما لعبته هذه الأعمال من دور في تغذية التفكير حول العلاقات بين اللغات والفكر والاستدلال والفعل... الخ. ومن أجل هذا، فإنّ الإشكالية العامة المنتشرة نسبياً لا تلتبس بما يدعى باللسانيات المعرفية. وهذا ما يفضي إلى الإحالة إلى اللسانيات العامّة التي يكمن هدفها في دراسة اللغات متّجهة من الأصوات إلى المعاني (من الدالات إلى المدلولات)، والبحث عن التّغيرات الموجودة بين اللغات. على أنّ النظريات اللسانية الواصفة للظاهرة اللغوية قد تشكّلت انطلاقاً من بداية القرن العشرين، حيث بحثت بعضها في تكوين نماذج لمجموع اللّغات، والأكثر إجرائية ما نجده في النّحو الصوري، في حين قام بعضها الآخر بمقارنة اللّغات بهدف استخلاص المواقع المشتركة، ومن ثمّة رصد التّغيرات الملاحظة من لغة إلى أخرى، وهو ما نجده في مقاربات كلّ من كومري Comrie ولازارد Lazard وسالير Seiller.

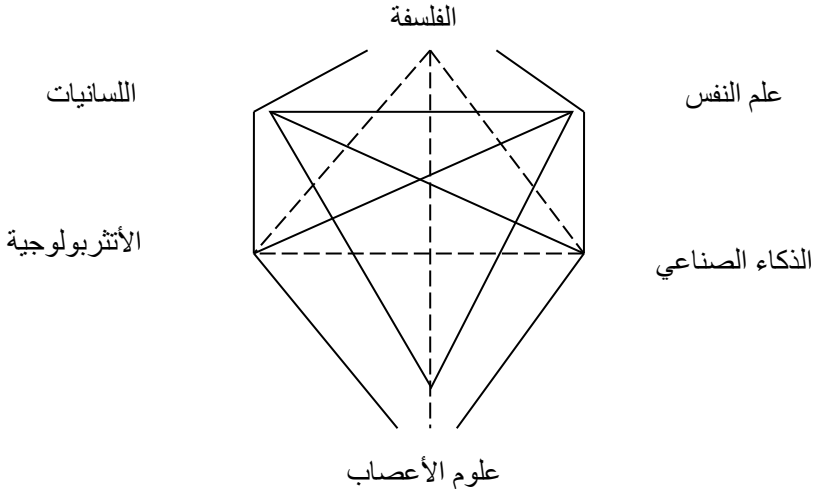
وتحت تسمية اللسانيات المعرفية، يحدث توافق على الإلمام بمجموع التّيارات التي تتقاسم هدفاً مشتركاً وهو اقتراح نظريات لغوية لا تكون عامّة وإجرائية فقط، ولكن تكون قابلة أيضاً للتّفصيل بطريقة صريحة مع النماذج العامّة للبنية الوظيفية للدّهن أو البنية العصبية للدّماغ. في هذا المنظور، يكون نظام قواعد اللغة هو موضوع الدراسة بالنسبة للساني باعتباره أنّه يشكّل مكوّنًا للدّهن البشري، وله بطريقة أو بأخرى حضور فزيائي في الدّماغ: تدعى هذه المقاربة بالمقاربة الطبيعية.

إنَّ اللسانيات المعرفية لا يمكنها الذوبان في علم النَّفس أو علم الأعصاب أو الإعلام الآلي، يكمن الرَّهان في إثبات خصوصية موضوعها (اللغة من خلال اللغات)، والاحتفاظ بالتحكم في المفاهيم وفي المناهج، وذلك بمراعاة تمكَّن هذه المفاهيم والمناهج من التفصيل مع ما يقابها في التَّخصّصات المرتبطة بها. إذاً تقترح اللسانيات المعرفية داخل نظام اللغة ذاته وانطلاقاً من دراسة التنظيم البنوي والدال لهذا النظام ضبط العلاقات بين اللغة والدَّهن والدماغ.

من هذا الجانب، فإنَّ اللسانيات المعرفية لا تدحض في التَّقسيم الكلاسيكي للأدوار بين اللسانيات والتَّخصّصات الأخرى وبالأحرى علم النَّفس. لأنَّ توزيع المهام يعود إلى بداية القرن العشرين عندما فرضت اللسانيات نفسها كتخصص مستقل متميِّز عن علم النَّفس: بالنسبة لسوسور يدرس اللساني "اللغة" مستقلة عن الدَّوات وظروف الكلام الفردي. في مقاربة تشومسكي أين عُرِفَت اللسانيات بكونها فرعاً من علم النَّفس، فإنَّ موضوع دراسة اللساني (القدرة بالية عامّة مشاركة في التكوين البيولوجي للجنس البشري) ليس بأقل تميِّزاً عن موضوع دراسة النفسي (الانجاز)، وعلى أساس التمييز من هذا النوع بالتحديد تطوّر ما يسمى بالتَّخصّصات الفرعية.

جغرافيا الدراسات المعرفية:

الجغرافيا تحدّد التاريخ، ومن ثمة يبقى من الصعب تحديد العلاقات الناشئة بين التَّخصّصات في خضمّ البحث المعرفي، ويمكن العودة إلى هذه الخطاطة¹⁰ :



- تشير الخطوط المتواصلة إلا العلاقات القويّة بين التَّخصّصات.

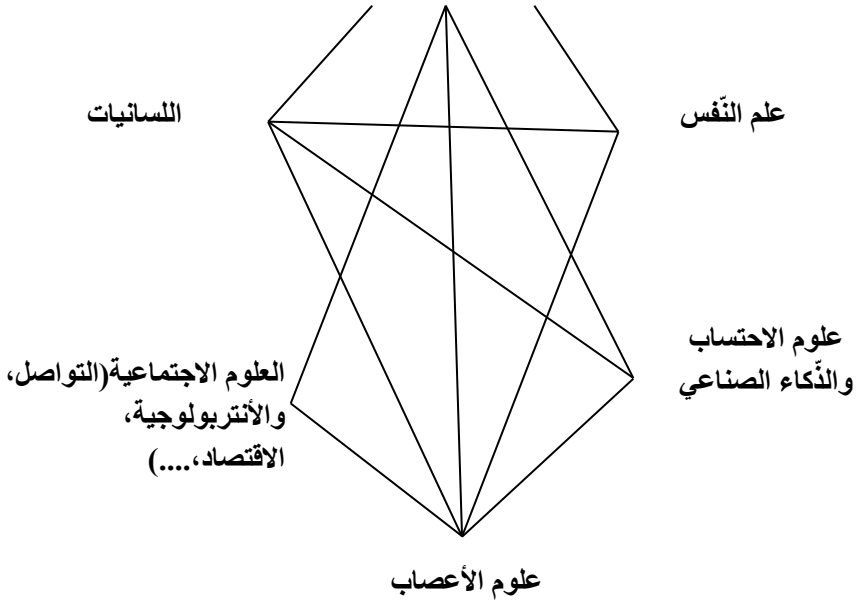
- تشير الخطوط المتقطّعة إلى العلاقات الضعيفة بين التَّخصّصات.

إنَّ العلاقات القويّة أو الضعيفة بين التَّخصّصات تُحدِّدها ظاهرة التأثير والتأثّر بينها، إذ قد يسع علم النَّفس أن يتأثّر ويؤثّر في اللسانيات، في حين تبقى الصلة بين الفلسفة والذكاء

الصناعي بحاجة إلى أكثر تحليل لأنها تخضع لمجالين معرفيين مختلفين..... وهكذا مع التخصصات الأخرى.

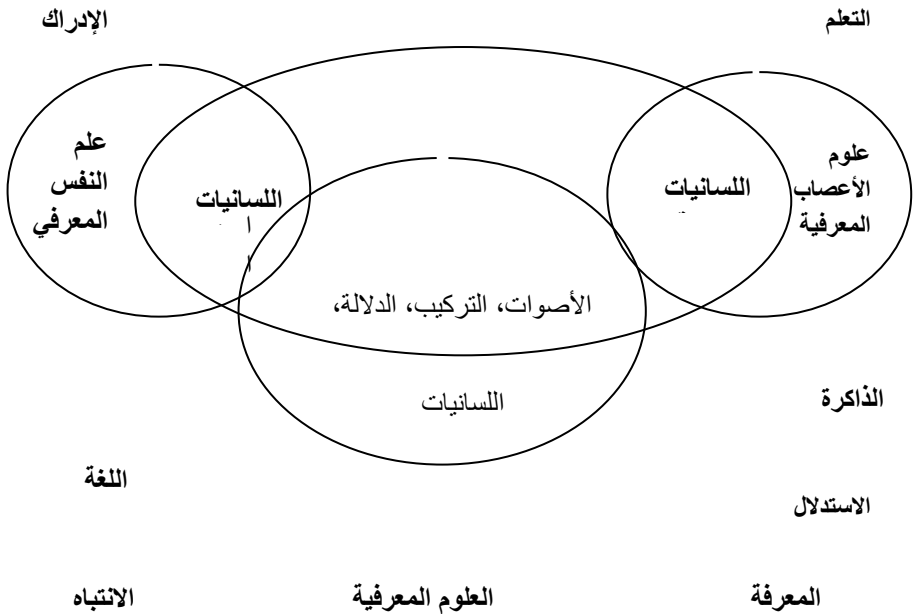
وإذا كان هذا الشكل المعرفي المتجانس يطرح المشاكل أكثر ممّا يحلّها، نجد جاردرنر Gardner من المعلقين على هذا المخطّط ملخصاً رأياً منتشرًا في أوساط الباحثين، فهو الذي يقول: "ما يجعل هذا الحقل موجودا هو الهدف المشترك للبحث: الكشف عن القدرات التمثيلية والاحتسابية للفكر وتمثّلاتها البنائية والوظيفية في الدماغ"¹¹، بينما نجد لومواني Le Moigne يقدّم وجهًا آخر لهذا الشكل أكثر تفصيلا وأكثر اختلافًا، ويوضّحه بهذه الصورة:

الابستمولوجية



- (أ) العلاقة بين علوم الاحتساب وعلوم الأعصاب تمثّل السبرنيتية Cybernetique
 - (ب) العلاقة بين اللسانيات وعلوم الأعصاب تمثّل اللسانيات العصبية Neurolinguistique
 - (ج) العلاقة بين علم النفس وعلوم الأعصاب تمثّل علم النفس العصبي Neuropsychologie
 - (د) العلاقة بين علوم الاحتساب واللسانيات تمثّل اللسانيات الاحتسابية Linguistique computationnelle
 - (هـ) العلاقة بين اللسانيات وعلم النفس تمثّل اللسانيات النفسية Psycholinguistique
- والملاحظ في هذا الشكل:

- استبدلت الإستمولوجية الفلسفة، وموقعها العلمي غير محدّد بدقّة، فهي تتموقع في مستوى آخر مقارنة بالتّخصصات الأخرى.
- اللسانيات الاجتماعية (الغائبة هنا) مرتبطة باللسانيات، واللسانيات النّفسية مرتبطة بعلم النّفس.
- لم تعد اللسانيات تُعدّ من العلوم الاجتماعية، ويبدو في هذا التّجاهل خطورة واضحة.
- نشوء تخصصّات أخرى باقتران العلوم فيما بينها، وهو ما يبرّر الفكرة المعالجة سلفاً، إذ كلّما كانت العلاقات قويّة كلّما سمحت بخلق علوم تلتزم بتناول القضايا التي لم يقدر عليها تخصصّ واحد، وبالتالي إثارة إشكالات أخرى تُطوّر دراسة اللغة البشرية وفهمها.
- كما نجد أيضاً من بلور فكرة الظاهرة الإدراكية أو المعرفية¹³ بهذا المخطط الشامل وهو ألبير دي كريستو Albert, Di cristo الذي بيّن بوضوح موقع اللسانيات المعرفية من حيث تقاسمها مجالات البحث مع اللسانيات العصبية واللسانيات النّفسية، وما يدخل ضمنها من مباحث صوتية، وتركيبية ودلالية وتداولية.



هل توجد لسانيات معرفية؟

إنّ العلوم المعرفية ترتبط بدراسة الدّهن-دماغ على المستوى المزدوج: المستوى الوظيفي (باعتباره معالجة للمعلومة وإنتاجها)، والمستوى المادي (باعتباره نظاماً فزيائياً متشكلاً من الترابطات العصبية الداخلية). وحسب الباحثين فإنّ الإصرار منصبّ على الثنائية

(فكر - دماغ) (الممتدة في بعض الأحيان إلى الثلاثية [ذهن-دماغ -آلة] في المنظور الصناعي أو الظاهري) أو على مفهوم "المعرفة" في علاقة مع ايتمولوجية مصطلح "الإدراك". لقد تعددت التعريفات المقدمة لهذا المجال، نجد منها:

تعريف أندلر Andler يقول فيه: "إن هدف العلوم المعرفية هو الوصف والتفسير، وعند اللزوم تصنف التنظيمات الأساسية وقدرات الذهن البشري من حيث اللغة، الاستدلال، الإدراك، الترابطات الحركية، التخطيط، ¹⁴.

أو تعريف هودي وآخرين Houdé et al: "فرضت العلوم المعرفية اليوم باعتبارها حقلا جديدا للمعرفة الذي يحاول التوضيح عن طريق التجريد بالتمذجة واستعمال التقنيات "سرّ الذهن" في علاقتها بالمادة: الذهن، الجسد والحاسوب"¹⁵.

ونجد تعريفا آخر من خلال Blackwell Dictionary of cognitive Psychology لـ M.Eysenk et al (1994). "إن مصطلح العلوم المعرفية يحيل إلى الدراسة متعددة العلوم لاكتساب المعرفة واستعمالها".

ثم لدينا تعريف فاريل Varella: "الأول مرّة، يعترف العلم (...) بشرعيته في استكشاف المعرفة في ذاتها وعلى كلّ المستويات، وهذا يتجاوز الحدود التقليدية لعلم النفس وللابستمولوجية التي احتضنتها لمدة طويلة"¹⁶.

وفي التوجّه نفسه يقول لازارد Lazard: "نعني بالعلوم المعرفية تلك العلوم التي يكمن هدفها في المظاهر المختلفة للنشاط الحسي والذهني التي يتعرّف الإنسان من خلالها على العالم الذي يحيط به. نجعل في هذا الإطار: علم النفس، الذكاء الصناعي، نظرية التواصل، وفلسفة الذهن، إلخ"¹⁷.

كما أورد لازارد Lazard رأيه في اللسانيات المعرفية: "ندمج عادة اللسانيات، وهو أمر وارد إذا اعتقدنا أنّ الفكر الإدراكي مرتبط باللغة. وفي المقابل إذا كنّا واعيين بخصوصية الظواهر اللغوية، فإننا ننظر إليها كعلم مقرون ولكن متميّز. وفي كلتا الحالتين يبقى مفهوم اللسانيات المعرفية غامضا. في الحالة الأولى إن أية لسانيات تعتبر معرفية، وفي الحالة الثانية لا يوجد أية لسانيات معرفية".

إن السؤال المطروح من قبل لازارد Lazard هو كالتالي: "هل للسانيات المعرفية من معنى وهل هي مبررة نظريا؟ إن تسمية اللسانيات المعرفية تعدّ اعترافا وذلك انطلاقا من مطالبة تيارات متعددة بذلك بطريقة أو بأخرى، "اليوم لا يوجد لساني لا يتملّق من تطبيق لسانيات أو اللسانيات المعرفية، فالجانب المعرفي أصبح من صميم الموضة"¹⁸. يُذكر استعمال الرابطة "أو" في هذه المقولة بأنّ اللسانيات المعرفية ليست بتيار موحد، ولكنها تشمل عدّة تيارات متضاربة. وبمفهوم كاترين فوك (2004)، فإنّ شروط بروز وتطور ما ينطوي عادة تحت مصطلح " اللسانيات المعرفية" يسمح بإثارة هذا التنوّع.

هل كلّ لسانيات هي لسانيات معرفية؟

باستثناء النظريات المؤسسة على البيهايفورية* التي ترفض كلّ ظواهر المعنى من مجال دراستها، يمكن القول أنّ كلّ النظريات الجديرة بهذه التسمية هي التي كان هدفها دراسة العلاقات بين الشكل والمعنى، وإن كان هذا الهدف يستحق صفة "المعرفي"، فإنّ أية نظرية لسانية هي نظرية معرفية، يقول أندلر Andler: "إنّ مقارنة (العلوم المعرفية) عن طريق الهدف والإجراء لا تقدّم إلّا مجموع برامج بحث منبثقة من تخصصات متعددة،

ونتساءل ما الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه التخصّصات، وما الذي يبادر بالخطوة العلمية؟ سوف يكون هناك حذف لعدة أشياء (...) وما هو غير متوقّع هو وجوب رفض الأعمال المنبثقة من التخصّصات التي تشكّل ما يدعى بـ"الكوكبة المعرفية"-اللسانيات، علم النفس، الأنثروبولوجية، علوم الأعصاب، الذكاء الصناعي، المنطق، والفلسفة-¹⁹. وهي أعمال لا تعارض لا في أساسها ولا في منهجيتها، ولكن ليس لها علاقة متميّزة مع الإشكالية المعرفية، فهي تتطوّر خارجها، وليس من مهامها تقديم الوسائل.

اللسانيات التي يقال عنها أنّها لسانیات معرفية:

نشأ في الولايات المتحدة التياران الأساسيان الذان يستندان إلى "اللسانيات المعرفية" من جانب نجد النّحو العام الذي يدخل في إطار النموذج الكلاسيكي للنزعة المعرفية "cognitivism"، ومن جانب آخر نجد النّحو المعرفي الذي يستند إلى نموذج آخر يوصف أحيانا بالبنائي وهي النزعة البنائية "constructivism". ومما يبدو فإنّ هاتين النزعتين تحيلان إلى ما يدخل في إطار البنية اللغوية، وما يدخل في إطار الجانب المعرفي الذي يتجاوز البنية ذاتها.

مما ذكرنا سلفا، يمكننا الاحتفاظ بالنقاط التالية: نشأت اللسانيات المعرفية في الولايات المتحدة الأمريكية، وأدّى هذا المنعرج النظري في حالة النّحو المعرفي إلى إعادة النظر في الفرضيات التّحوية باستثناء التيار ما بعد الوظيفي Néo-fonctionnaliste الذي يشكل حالة خاصة تستحق تطوّرا خاصا من قبل عدد من الباحثين الأروبيين، ومن خلال ذلك نفهم الإثبات المفاجئ للازارد Lazard الذي يعتبر أن تسمية "اللسانيات المعرفية" باعتبارها عبارة مصطنعة لا تحفظ بمعناها خارج الولايات المتحدة، وفي كلّ الأحوال عند كلّ من لم يتعرّض لسلطة النزعة التوليدية التحويلية.

نعود الآن إلى السؤال المركزي المطروح من قبل لازارد، والذي يمسّ شروط وجود اللسانيات المعرفية. بالنسبة لهذا الباحث، إذا أرادت أية نظرية لسانية في أن تكون معرفية، فإنّها ستواجه بالضرورة معضلة كبيرة، إمّا أنّها تعود إلى التّصور التقليدي للغة باعتبارها نظاما من العلامات بحثا في علاقة الشكل بالمعنى، وفي هذه الحالة لن يتعلّق الأمر إلا باللسانيات (بالمفهوم التقليدي للمصطلح)، وبهذا يقول لازارد Lazard: "إنّ الصفة كبيرة: اللسانيات المعرفية هي اللسانيات العامّة فقط"²⁰، أو أنّها تخرج عن ميدان تخصّصها محاولة إيجاد معلّلات خارجية للظواهر اللسانية الموصوفة أو استنتاج خصوصيات عامّة للذهن البشري إنطلاقا من الملاحظات، وفي هذه الحالة لن يتعلّق الأمر باللسانيات لأنّ هذا النمط يحتمل خطرا، وهو انحلال اللسانيات في الجانب المعرفي، وبطريقة أخرى هو تجاهل خصوصيتها"²¹.

- تشومسكي والمعرفية:

يعود التّاريخ الرسمي للتّيار المعرفي إلى سنة 1956، إذ جمعت محاضرات لنعوم تشومسكي N. Chomsky (اللساني)، وهيربرت سيمون Herbert Simon (عالم النفس)، ومارفين منسكي M. Minsky (مختص في الذكاء الصناعي). تهدف هذه المؤسسة المتعدّدة العلوم إلى تحديد عمل الذّهن من خلال الملكات التي يطوّرها وبالأخص ملكة اللّغة²². إنّ الفرضية في الأساس تتمثّل في إمكانية تحديد المعرفة الإنسانية بطريقة الآلة بمصطلح

الحسابات المطابقة لمعالجة مختلف أنواع المعلومات التي يستقبلها الإنسان، وهكذا وجدت اللسانيات الصورية مكانة مهمة في المؤسسة العامة للعلوم المعرفية. والنموذج الكلاسيكي الذي يترأس هذه المؤسسة يدعى بـ "الإحصاء التمثلي الرّمزي" وهو مؤسس على فكرة الحسابات على الرموز. عرفت هذه الرموز بحقيقتها الفيزيائية أي العصبية البيولوجية والدلالية، وبطريقة أو بأخرى فإنّ هذه الرموز تدخل في إطار الدّماغ وتمثّل العالم، أمّا النّشاط اللغوي فيقوم بمعالجة المعلومات باستخدام القواعد التركيبية للتعامل الرّمزي، وفي هذا إحالة غير مباشرة إلى النزعة البنائية والنزعة المعرفية. إنّ التوجّه المعرفي يتأسس في نهاية الخمسينيات على فكرة "الدّهن الآلي" الذي يتقاسمه كلّ من علم النّفس المعرفي، والفلسفة المعرفية والدّكاء الصناعي*، أمّا التناظر فلم يستغلّ إلاّ مع نهاية سنة 1980 في إطار التقارب مع علوم الأعصاب. وبتبنيّ هذا النموذج الكلاسيكي، شكّلت نظرية تشومسكي عددا من الخيارات النّظرية والمنهجية، وباختصار فهي خطوة افتراضية-استنتاجية، (منظور وحداتي على طريقة فودور Fodor) تقول أنّ الملكة اللغوية فطرية*، وترتكز على القدرات الخاصة منفصلة عن الجانب المعرفي العام، وإدراك اللغة باعتبارها وسيلة للتعبير عن الفكر يسمح بنقل المعلومة الخاصّة بالعالم، والعودة إلاّ التتميطات Modélisations من النّوع المنطقي الحسابي* وربما هو انتقال من الجانب الفطري المرتبط بالقدرات الدّهنية التي تسمح باكتساب اللّغة إلى الجانب المعرفي الذي يفرض على الإنسان الاندماج في المجتمع، وبالتالي إحداث نوع من الإتمام والتّكامل حتّى يتمّ التّعرف على العالم بفضل الحواس وبفضل المكتسبات الأخرى: الاجتماعية، والتّعلّمية، والثّقافية، والتّربوية.

المنظور المعرفي الاحتسابي لتشومسكي

تتمثّل الفرضية المؤسّسة للمشروع الذي جمع كلّاً من نعوم تشومسكي Chomsky، N.، وهربرت سيمون Herbert Simon، ومارفين منسكي M.Minsky في إمكانية تحديد المعرفة الإنسانية على طريقة الآلة بمصطلحات الحسابات المطابقة لمعالجة مختلف أنواع المعلومات التي يستقبلها الإنسان. يتمّ إدراك الدّهن في هذا المنظور باعتباره نظاماً معقّداً لمعالجة المعلومة، مؤسساً على مجموع القواعد التي هي سبب في عدد غير محدود من العمليات والحسابات الدّهنية، ومن هنا ظهر مصطلح النّزعة الدّهنية في اللسانيات. إنّ الفلسفة الدّهنية التي نادى بها تشومسكي هي في منطلق هذا التّحوّل الجذري للسانيات التي كانت تهيمن عليها النزعة البيهافورية. لم يكن الأمر بالنسبة لتشومسكي سهلاً لإعادة النّظر في كيفية نشوء اللّغة، فكان لزاماً عليه العودة إلى النّظرية العقلية (ديكارت) لتفسير الفكر، وكذلك العودة إلى مدرسة بور روابال. وفي دراسته السابقة، أشار تشومسكي إلى ضرورة إدراك موضوع اللسانيات كحقيقة ذهنية بدل النّظر إليها كسلوك لساني قابل للملاحظة. وفكرة تشومسكي حول قواعد التّحويل التي تنطلق من النّواة هي أساس مفهوم اللسانيات الاحتسابية وأساس الدراسات التي تستوحي من اللّغات الصورية لوضع ما يدعى بالمعالجة الآلية للّغات.

والعودة إلى نظرية الوحدات الدّهنية يعيدنا إلى جيرى فودور Jerry Fodor التي تأثّر بتشومسكي وبنظريته. أكّد جيرى فودور أنّ الدّهن لا يعمل كوحدة كاملة، واللّغة ضمنه ليست إلاّ وحدة ضمن الوحدات الأخرى: السمعية، التذكيرية، اللمسية.... واللّغة باعتبارها وحدة

تتكوّن من وحدات صغرى من أنواع مختلفة: صوتية، صرفية، مرفولوجية، تركيبية... وما نستنتج من نظرية فودور هو:

- تميّز الوحدات بمظاهر آلية، لا واعية، سريعة، متوازية ومستقلة بعضها عن بعض، وهذا في مقابل النظام المركزي المتميّز بالوعي، والبُطء والتسلسل.

- عمل الدّهن لدى الإنسان خاضع للتراتبية في معالجة المعلومات مهما كانت طبيعتها، والإنسان يشغّل عدّة أنظمة لدى استقبال المعلومة.

أشار فودور Jerry Fodor إلى ثلاثة مكونات تشكّل هذه الأنظمة، وما يميّزها هو استقلال بعضها عن بعض وهي: محوّل الإرسال Transducteur، والنظام المحيطي S. Périphérique، والنظام المركزي S. Central.

هناك مناطق في الدّهن تتكفّل بتوزيع المعلومة وفقاً لمبدأ هذه المكونات:

- محوّل الإرسال يقوم أثناء استقبال الرّسالة بمعالجتها وترجمتها على شكل لغة، أو حركة، أو صوت... ففي هذه المرحلة يتمّ تحديد المعلومة وتصنيفها.

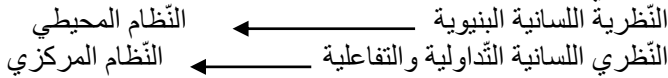
- النظام المحيطي يقوم بمعالجة المعطيات المدركة من طرف أحد قنوات محوّل الإرسال بتوجيه المعطيات اللسانية في أنظمة لسانية ثانوية/فرعية.

أمّا النظام اللساني فهو نظام مميّز نظراً لطبيعته المعقّدة مقارنة بالأنظمة الأخرى، ذلك أنّ المعطيات اللسانية تعالج بطريقة وضعية، أي في مظهرها البنيوي والوضعي لا غير، أمّا المظهر التداولي والتلفظي فهو من اختصاص النظام المركزي.

يسمح النظام المركزي بمقابلة المعطيات التي تصله عن طريق النظام المحيطي وهو ما يساعده على ترجمتها بشكل صحيح، وبالتالي تمكين الإنسان من فهم دلالة كلّ المعطيات المتضمنة في الرّسالة.

وللتمكن من إنجاز هذه العملية، فإنّ الدماغ المركزي يوظّف عمليات استدلالية محدّدة تفرضها البنى المنطقية والسياق المتشكّل في الذاكرة.

وبهذا الطّرح، يمكن القول أنّ ترجمة المعطيات اللسانية هي من مهام النظام المحيطي الذي يمثّل وحدة مغلقة محدّدة للبنية الوضعية للغة، في حين يعدّ فهم اللغة من مهام النظام المركزي، ويمكن أن نمثّل ذلك بهذا الشكل:



وإذا أخذنا مثلاً لجورج يول²³: "هناك امرأة جالسة على مقعد في حديقة عامة وأمامها كلب ضخم مستلق على الأرض، جاء رجل وجلس على المقعد إلى جانب المرأة

الرّجل: أيعض كلبك؟

المرأة: كلا.

(حاول الرّجل مداعبة الكلب، عضّ الكلب يد الرّجل)

الرّجل: آخ أنت، قلت أنّ كلبك لا يعض.

المرأة: هذا صحيح، ولكن هذا ليس كلبك.

من الملاحظ أنّ الرّجل في هذا المثال توقّف عملياته الدّهنية عند حدود النظام المحيطي، إذ ترجم الجملة من حيث هي وضع أي اعتمد على السياق اللغوي دون غيره، بينما لم تترجم الجملة في النظام المركزي نظراً لافتقار المعطيات التداولية التي تحيل إلى

عدم نجاح التّعاون بين الشخصين، إذ لم يحدّد الرّجل مقاصده بشكل جلي، وإجابة المرأة لم تكن إلا مطابقة للسؤال المطروح نظرا لعدم توافر الشروط التواصلية التي تسمح بنجاح العملية التداولية.

نتوصّل في الأخير إلى أنّ اللغة تميّز الفكر البشري، وتفسر كيفية تواجدها العمل الذهني فيها. هذه هي إشكالية اللسانيات المعرفية، فإذا كانت اللسانيات "بمصطلحها الصرف" تركز على العلاقات بين الشكل والمعنى، فإنّ عليها إضافة تفكير حول الدلالات اللسانية في علاقتها بالمفاهيم، وبذلك يُطرح السؤال حول العلاقات الكائنة بين اللغة والفكر، وهي العلاقة التي عالجتها الفلسفة منذ زمن بعيد وهي محلّ تطوّرات جديدة في إطار العلوم المعرفية. ولقد حدثت موافقة نسبية بين عدد من الباحثين من تخصّصات مختلفة تقول إنّ اللغة ليست بضرورية للفكر: الفكر دون لغة شيء ممكن، ولكن يبدو أنّ اللغة تتكوّن من شكل فكري خاص بالإنسان، فاللغة هي التي تشغّل نوعا خاصا من العمليات، وبذلك تنبؤا مكانة أساسية ضمن جميع العلوم الإنسانية والاجتماعية والتجريبية.

الهوامش:

*- في 1935، قام ألان تورينغ وهو شاب متقن للرياضيات بإيجاد إجابة للمشكلة التي طرحها هيلبرت Hilbert في 1928، ومقاله حول الأعداد القابلة للاحتساب بتطبيق طريقة Entscheidungsproblem يصدر عام 1936. وهذه الأعداد يمكن أن تكون محسوبة بالآلة قادرة على قراءة الرموز وكتابتها على متوالية محدّدة من الخانات، وذلك حتّى يتمكّن من قراءة بعض الرموز على أنّها موجّهات للتغيير، وبهذا الصنيع يؤكد تورينغ على إمكانية صنع مثل هذه الآلة. ينظر: Rastier, F, Linguistique et recherche cognitive, Histoire, Epistémologie ; Langage Revue 11-I, 1989, P 15. وتمثّل التجربة في اختبار الذكاء الصناعي المؤسس على فكرة تقليد المحادثة البشرية، ويتمثّل الاختبار في وضع الإنسان في مواجهة لغوية مع الحاسوب، وفي مواجهة إنسان مع إنسان أعمى: فإذا كان الإنسان الذي يبادر إلى المحادثات غير قادر على تحديد الآلة من بين مخاطبيه، فإنّه يمكن اعتبار أنّ الآلة قد اجتازت الاختبار بنجاح.

♦- وهذا تطبيقاً للنظرية السوسورية التي انطلقت من فكرة "دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها"، وهي فكرة تبلور دراسة اللغة دراسة علمية، موضوعية، وداخلية. ينظر: Dassaussure, F, cours de linguistique générale, Dalila Morsly, ENAG editions, Lger 1990, P IX. وسوسور رائد علم اللغة الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة 1989، ص 14.

1 - Gardner. H, The Mind's New science: A History of the cognition revolution, New York: Basic Books, 1985.

- 2 - Le Moigne, J.L, « Genèse de quelques nouvelles sciences : de l'intelligence artificielle aux sciences de la cognition », In Le Moigne, J.L, Editions Mécanismes de l'intelligence, intelligence des mécanismes, Fayard, Paris 1986, P239.
- 3 - Bouveresse. J, « psychologie et linguistique : qu'a-t-il de proprement mental dans la signification et la compréhension ? », in De Mattia, M & al Editions, 2001 , P 32.
- 4 - Rastier.F, « la sémantique cognitive : éléments d'histoire et d'épistémologie », Histoire et épistémologie, Langage 15/1, Paris 1993, 168.
- 5 - Descles. J.P, « Réflexions sur les grammaires cognitives », Modèles linguistiques, 29/XV , Paris 1994, P 77.
- 6 - Albert, Di cristò : « Prosodie et cognition », Conférence, Université de Toulouse, Mai 2002, P 03.

7- لاكوف وجونسون Lakoff & Johnson : نظرية الاستعارة.

8- لونفاكر Langacker : نظرية النحو المعرفي.

9- تالمي Talmy : نظرية علم الدلالة المعرفي.

*- نعوم تشومسكي: هو عالم اللغة المعاصر الأهم والأشهر. كان تأثيره على علم اللغة المعاصر حاسماً، تتلمذ على يد اللغوي زليغ هاريس، أحد أكبر منظري اللسانيات التوزيعية في بداية خمسينيات القرن العشرين، وصاغ في نظريته The Logical Structure of Linguistic Theory التي كتبها عام 1955 الأدوات التي سمحت لأول مرة لعلم النحو وعلم الدلالة الالتحاق بعلم وظائف الأصوات في ميدان الدراسات الدقيقة المعقدة تجريبياً.

10 - Rastier. F, Linguistique et recherche cognitive, Histoire, Epistémologie ; Langage Revue 11-I, 1989, P10.

11- Gardner, Howard, The Mind's New Science: A history of the cognitive revolution, New York: Basic Books, 1985.

12 - Le Moigne, J.L, « Genèse de quelques nouvelles sciences : de l'intelligence artificielle aux sciences de la cognition », in Le Moigne, J.L, Editions Mécanismes de l'intelligence, intelligence des mécanismes, Fayard, Paris, P 51.

13 - Albert, Di cristò : « Prosodie et cognition », Conférence, Université de Toulouse, Mai 2002.

14 - Andler, D, « Sciences cognitives », in Encyclopedia Universalis, 1989.

15- Houdé . O & al, Vocabulaire des sciences cognitives, P.U.F, Paris 1998, P 01.

16 - Varela. F, Invitation aux sciences cognitives, Le seuil, Paris 1996, P10-11.

17 - Lazard. G, «What are we topologists doing? », in Frajzyngier & al Editions, 2004, P 03.

18 - Lazard.G, «What are we topologists doing? », P 01

*- البيهافورية أو السلوكية le comportementisme هي مدرسة في علم النفس، بلغت أوج تأثيرها بين عامي 1920 و 1960، وكانت ترفض دراسة الفكر على أنه غير علمي، وسعت إلى تفسير السلوك والتعلم عند الكائنات، بما في ذلك البشري، من خلال قوانين الإشرط بالمثلث - الاستجابة .

19 - Andler. D, « introduction. Calcul et représentation: les sources » in Andler. D, (éditions) introduction aux sciences cognitives, Paris Gallimard, P14-15.

20- Lazard. G, «What are we topologists doing? », P 14.

21- Lazard. G, «What are we topologists doing? », P 14.

22- Fuchs. C, La linguistique cognitive existe-t-elle ?, Quaderns de filologia 14 « New perspectives in cognitive linguistics », P115-133.

*- وهو ما يحيلنا إلى الثلاثية العلمية المختلفة التوجّه التي جمعت بين نعوم تشومسكي وهاربرت سيمون ومارفين منسكي.

♦- الطبيعة الفطرية للغة فكرة نادى بها نعوم تشومسكي وهو في أحضان المدرسة التحولية التوليدية مخالفاً بذلك ما جاءت به المدرسة السلوكية التي تنظر إلى اللغة نظرة شكلية تجعل اللغة تُكتسب في المجتمع عن طريق المثير والاستجابة.

♥- نعني بذلك العودة إلى فكرة العمل الذي تؤديه خلايا الدماغ أو الأعصاب لفكّ شفرات الرسالة، والانتقال بها من الجانب اللغوي المحض إلى الجانب المعرفي الملمّ بالمعلومات الإضافية التي لا تستقي إلا من البنية الخارجية للغة ذاتها.

*- وقد فسّر ذلك الدكتور عمر بلخير في مقال له بعنوان: اللسانيات والإدراك.

23- جورج يول، التداولية، ترجمة قصي العتابي، دار الأمان، الرباط 2010، ص 66.